الثروة السمكية في السواحل المتوسطية من بلاد المغرب في العصر الوسيط

د. محمد بن عميرة •

المعروف، الآن، أن الأسماك تتخذ أشكالا، حسب ظروف الوسط الذي تعيش فيه: فمنها ما تعيش في الأعماق، ومنها ما تعيش على السطح، ومنها ما تعيش في اتصال بينهما.

وتقوم أصناف الأعماق بهجرات موسمية، ذات مدى قصير، تصل فيها دائما إلى مناطق صيدها، وأعماق البحر المتوسط تقدّم مجموعة مكوّنة من أصناف كثيرة جدًّا، لكن أعدادها تبقى دائما ضعيفة، لا تُصَادُ منها سوى كميات قليلة ومتنوّعة جدًّا[١].

وتوفر البيئة المتوسطيّة ظروفا جيّدة جدًّا للأصناف التي تعيش على السطح، وهي تقدم عددا قليلا من الأصناف لكن عدد أفراد الصنف الواحد منها كثيرة، وقُدرة تكاثر هذه الأصناف كبيرة جدًّا، والاستغلال الإنساني لها لا يكون إلاّ بالصدفة، وعادة ما تُعرف تحت اسم الأسماك الزرقاء، وتقوم بهجرات مهمة: بعضها يتنقل على المستوى العمودي (مثل السردين) والبعض الآخر على المستوى الأفقي (مثل التُّن)، ومهما يكن فإن أساس ثروة المياه السطحية المتوسطية تكوّنه هذه الأصناف المهاجرة[٢].

أمّا أصناف، ما بين السطح والأعماق، فهي توجد في الهُدَب البحرية (Franges lagunaires)، حيث تأتي الأسماك، وبالأخص السلور (anguille) والبوري (muge) للنموّ في المياه الأجاجة (saumâtre) ثم التوجه، بعد ذلك إلى المياه البحرية للتكاثر، وهنا أيضا يتيح نظام الهجرة ظروفا مواتية جدًّا للاستغلال الإنساني[٣].

ويصنّف Borrel A. الأسماك إلى مستقرة ومهاجرة وقُشْرِيّات (Crustacés) ومرجان متشعب (madrépores)[٤]. والصفات الأساسية للأسماك المستقرّة هي

• قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجزائر

1 : Doumenge M. F. : Problème de la pêche en Méditerranée occidentale, Bulletin de l'association de géographes français, n° 276-277, Juin-juillet, 1958, P.9

2 : Doumènge : op.cit., P. 9

3 :Doumènge M. F, op. cit, P.9.

4 : Les pêches sur la côte septentrionale de la Tunisie, Presse universitaires de France, Paris, 1956, P. 22

*: مفرد بلعُوط: وهو فرخ سمكة يستعمل في تربية الأسماك، (جبور عبد النور وسهيل إدريس: المنهل، قاموس فرنسي-عربي، دار الآداب، بيروت، يونيو، ١٩٧٠، ص ٣٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العيش طول العام، تقريبا، وفي نفس المناطق، وبالتّالي، الاحتفاظ بنمط معيشي مستقر إلى حدّ ما، وهذا لا يعني فرض سكون تام عليها ولكن تنقلاتها المنتظمة تكون على نطاق ضيّق، ولا تُبعدها على الشواطئ، وهي تحركات مشتركة، بين كل الأصناف يتطلبها، على الخصوص، نموّ البلاعيط* والتسرئة، وهما السببان الدّائمان لتحركات جميع الأنواع[٥].

والأسماك المهاجرة تقوم بأسفار طويلة في البحر، ولا تظهر بجوار السواحل إلاّ في بعض الفترات، ومن ثَمَّ يكون صيدها متناوبا أو موسميا، وهي بذلك تختلف عن سابقتها، ويكون ظهورها قرب الساحل، بعد غياب طويل، يدوم أغلب أوقات سنة، في فترة خاصة بكلّ نوع ومحدّدة جدًّا، وهي عادة الربيع، حيث تصل بأعداد كبيرة مكوّنة أسرابا معتبرة، تتسارع، قرب سطح الماء، في أغلب الأحيان قرب الشاطئ، وتتبع كلّها معبراً متشابها، في عرض سواحل تونس الشمالية، قادمة من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ومتجهة نحو قناة صقلية، وعندها يمكن للصيادين أن يباشروا إحاشات[٦] هامة، دون هوادة وأن يصطادوا بالجملة تلك الأسماك، وعليهم انتهاز الفرصة لأن الأسراب تقلّ بسرعة، قبل أن تختفي نهائيا.

وتواصل الأسماك هجرتها الجماعية (exode). وقد تفاجأ، أثناء عودتها، من رحلتها، إلى نقطة انطلاقها لكنها تكون، عندئذ أقل اكتضاضا[٧].

وتصطاد القشريات موسميا هي الأخرى، ومنها الكركند، أي الجَراد البحري (Langouste) وسرطان البحر (Homards) والجمبري (crevettes)، ويعيش هذا الصنف من الأسماك في أعماق مُوَلِدّة للمرجان (Coralligène) بمناطق صخرية، بها مَعْشبات[٨].

والصنف الرابع من السماك، حسب تصنيف .Borrel A هو سمك المرجان (Pageot) الذي ينتمي إلى عائلة المجوفات.

أما في العصر الوسيط فقد لاحظ Vonderheyden، أن الكُتّاب العرب القدماء لهم نظرة خاصة في تناول موضوع الأسماك حيث كتب عدد منهم ما يسمّى "كتب العجائب" وأكّدوا فيها خصوصا، على أشياء استثنائية، إلى حدّ ما، وأهملوا وصف سير الحياة اليومية[٩].

---

[5] Borrel A., op. cit ; P. 22 :

[٦] : الإحاشة أو الحوش هي الالتفاف حول الصيد لدفعه إلى مكان صيده (المنهل، ص ١٠٧)

[7] . A. Borrel, op. cit ; P. 25

[8] . Ibid, P. 26

[9] :. La pêche sur les côtes barbarèsques au moyen Âge, P. 6

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المعلومات التي زوّدنا بها هؤلاء ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار (ق ٦هـ/١٢م) من أنّ كلاما كان يُتداول بين الناس، مفاده: أنّه ما اجتمع في مائدة رجل ثلاثة أشياء، متضادة المواضع، إلاّ في مائدة من يسكُن قابس ومن بينها الحوت الطّريّ[١٠]. وقد شُيّد في عهد الوزّان حصن المحرس بمدخل خليج قابس لحماية المدينة من هجمات السفن المعادية، وهو على بعد خمسين ميلا، تقريبا من جزيرة جربة التي يعمل الكثير من سكانها في السفن والصيد البحري[١١] وهذا ما ينفي، دون أيّ شك تلك الملاحظة التي سجّلها Vonderheyden ومفادها أنّه "لم يجد أية إشارة خاصة ببحر بوقرارة (Bou-grara)، قرب جزيرة جربة وهي كثيفة بالأسماك ومستغلّة بكثرة في وقتنا"[١٢].

وقد كان أهل صفاقس يصطادون، حسب ابن حوقل (ق. ٤هـ/١٠م)، الأسماك بكثرة[١٣]، ويفيد الإدريسي (ق. ٦هـ/١٢م) أنه كان يصطاد من قصر قبوذية. الذي كان يبعد عن المهدية بخمس وعشرين ميلا، كل أنواع السمك النادر (كل طريفة)، وهو كثير ورخيص هناك[١٤]. كما أن رباط المنستير الواقع على نحر (ضفّة) البحر كان يأوي أمّة (مجموعة) تعيش على صيد السمك، وكذلك الأمر بالنسبة لمجموعة كانت تعيش بقصر رباط شقانص، الواقع بين المنستير والمهدية[١٥].

وتشكّل المواقع المذكورة والمحصورة بين قابس والمهدية، سواحل تونس الشرقية، وهي منطقة غنيّة جدًّا بالأسماك، غَدّت دائما مجموعة هامة من الصيادين. وهناك، على الخصوص، بين الشاطيء وجزر قرقنة، أعماق كثيرة الارتفاع، مع مروج تحبحرية (sous-marines) ملائمة جدًّا للصيد[١٦].

وقد أورد ابن حوقل، في حديثه عن تونس وسطفورة، أن بهما من الحيتان ما يزيد عن الكثرة وهو، حسب رأيه، أرخص وأوفر مِمّا في طرابلس[١٧]. مع العلم أنه عندما تحدّث عن طرابلس لم يشر إلى وجود أسماك بها. وكان بجبل أدار، الواقع

---

[١٠]: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر النّص العربي Alfred de Kremer، ط فيينة، ١٨٥٢، ص ٣؛ أمّا الشيئان الآخران فهما: لحم الغزال الطريّ، والرّطب الجني.

[11] Léon l'africain ; description de l'Afrique, Traduit de l'italien par A. Epaulard et annote par A Epaulard et autres, Nelle éd., Paris 1980, T. 2, PP. 399-400.

[12] op. cit ; P. 18

[١٣]: صورة الأرض، ط أبريل، ١٩٦٧، ص ٧١.

[١٤]: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، النص العربي، ص ص ١٦٩-١٧٠، الترجمة الفرنسية، ص ١٥٤.

[١٥]: صورة الأرض، ص ٧٣.

[16] Vonderheyden, op. cit ; P. 18

[١٧] : صورة الأرض، ص ٨٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جنوب تونس والذي يظهر منه جبل صقلية، حسب البكري (ق. ٥هـ/١١م) قوم متعبّدون، انعزلوا عن الدنيا، يعيشون من نبات الأرض وصيد الأسماك[١٨]، كما يتفق البكري مع القزويني على القول: إن بتونس أنواعاً من الأسماك لا توجد بغيرها، وهي كثيرة، يظهر في كل شهر من الأشهر الميلادية نوع جديد منها ثمّ يختفي ليظهر في نفس الشهر من السنة الموالية[١٩].

ويُلحق ابن حوقل إقليم سطفورة المتكوّن، حسب رأيه،من ثلاث مدن هي: أنبلونة، الأقرب من تونس، ومتيجة ثم بنزرت، بتونس، في مجال الأسماك، حيث أورد أن بهما(تونس وسطفورة)من الحيتان ما يزيد على الكثرة[٢٠]مضيفا أن"واد عجيب يخرج فيه كل شهر نوع من السمك،وإذا أهلّ الهلال لا تجد من ذلك النوع واحدة ويظهر غيره"[٢١].

وتُجمع المصادر، أيضا، على وجود هذه الظاهرة في البحيرة المنسوبة إلى بنزرت[٢٢] والواقعة إلى الشرق منها، وطولها ستة عشر ميلا وعرضها ثمانية أميال، فَمُها متصل بالبحر، وكلما أخذت في البرّ اتّسعت[٢٣] وتصب في تلك البحيرة مياه البحر الكبير (الأبيض المتوسط) ويعيش فيها "في كل شهر من الشهور الأعجمية نوع من الحوت"[٢٤] ثم يختفي ليظهر في السنة الموالية من نفس الشهر، فتُعَدّ أصناف هذا الحوت بعدد أشهر السّنة، أي اثني عشر، لا يختلط بعضها بالبعض الآخر.[٢٥]

---

[١٨] : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ط بغداد، ص ٨٤ ؛ الترجمة الفرنسية.

Mac Guckin de Slane, description de l'Afrique septentrionale par Abou Obeid el-Bekri, traduit par Mac guckin de slane, Paris, 1965, P. 170.

[١٩]:نفس المصدر ، ص٤١، الترجمة الفرنسية ، Ibid,P.89، القزويني ، آثار البلاد ، ط بيروت ، ص ص١٧٣ - ١٧٤.

[٢٠] صورة الأرض،ص٨٤،الترجمة الفرنسية،op. cit ; P. 70؛ ويلاحظ أنه لا يبدو من مدن سطفورة التي ذكرها ابن حوقل سوى بنزرت، كما لا يشير ابن حوقل إلى المدينتين الأخريتين: أنبوبة ومتيجة.

[٢١] : ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٧٤.

[٢٢] : يكتبها المراكشي "بني زرت"،(المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلّق عليه،وأنشأ مقدّمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي،القاهرة،١٣٦٨هـ/١٩٤٨م،ص ٣٥٢).

[٢٣]: الإدريسي، المغرب العربي، ص ١٥١؛ الترجمة الفرنسية محمد حاج صادق، ص ١٣٩؛ مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص ١٥؛ الترجمة الفرنسية، E. Fagnan, P. 26.

[٢٤] : كتاب الاستبصار، ص ١٥، الترجمة الفرنسية، Ibid, P. 26.

[٢٥]:قارن. البكري:المُغرب،ص ٥٨،الترجمة الفرنسية op. cit ; P.122؛الإدريسي المصدر السابق، ص١٥١،الترجمة الفرنسيةop. cit ; P. 139؛الزهري:كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، نشره فيBulletin d'études orientales في l'institu français de Damas T. XXI, année 1968, P. 108 كتاب الاستبصار، ص ١٥، الترجمة الفرنسية، op. cit ; P 26.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فظاهرة اِثني عشر نوعا، بمعدّل نوع واحد، في كل شهر، من أَشْهُر السنة الميلادية تخصّ، إذاً، كُلاً من تونس وبحيرة بنزرت ووادي بنزرت، ويعتبر Vonderheyden أن السمك كثير جدّاً ورخيص في المرسى (مكان قرطاجة) وتونس وبنزرت أي بمنطقة البحيرات الأجاجة[٢٦].

ومن الأسماك التي يظهر منها نوع معيّن في كلّ شهر: ما يسمَّى البقونس الذي يقال فيه مَثَلُ: لولا البقونس لم يخالف أهل تونس[٢٧] أو لولا البقونس ما تخالف أهل تونس[٢٨]، مع العلم أن هذه التسمية لم تَعُد معروفة بتونس في أيامنا[٢٩]؛ ومن الأنواع التي كانت معروفة آنذاك، ولم تعد كذلك اليوم، العبانق والأكتبري الذي يحتمل أن يكون الشلبة، أي السمك الذي يظهر في شهر أكتوبر بخليج تونس في وقتنا، ونوع الأشبارس (Sparus) والمنكوس[٣٠] (ombrine).

وقد اكتفى البكري، كما يُلاحَظ، بذكر خمسة أصناف فقط من الإثني عشر المشار إليها، في حين أن ابن حوقل الذي تحدّث عن واد عجيب في إقليم سطفورة، اقتصر على القول إنه: "يخرج فيه كلّ شهر نوع" من السمك، وإذا أهلّ الهلال لا تجد من ذلك النوع واحدة ويظهر غيره"[٣١] والمقصود بهذا النهر "العجيب" هو، بدون شك، وادي تِينَّجَة الذي يربط بين بُحيْرتي بنزرت وإشكُل.

وتلاحظ أغلب المصادر العربيّة أن الأصناف الإثني عشر التي يظهر منها كل صنف في شهر معين ببحيرة بنزرت لا يختلط بعضُها بالبعض الآخر[٣٢].

وقد انفرد الإدريسي بذكر هذه الأنواع كلّها: وهي: البوري(mulet capiton)[٣٣]، والقاجوج (grand sar ou sargue) والمَجلّ، وهو نوع من الروجي

---

[26] op, cit ; P. 18

[٢٧] : البكري: المصدر السابق، ص ٤١.

[٢٨] : القزويني: المصدر السابق، ص ص ١٧٣-١٧٤.

[٢٩] : انظر: Mac guckin de slane, op. cit ; P. 89, note 2.

[٣٠] : البكري، المغرب، ص ٤١، الترجمة الفرنسية، Ibid, P. 89.

[٣١] : المصدر السابق، ص ٧٤.

[٣٢] : قارن. البكري : المُغرب، ص ٥٨؛ الإدريسي: المغرب العربي، ص ١٥١؛ الزهري: كتاب الجغرافية، ص ١٠٨؛ كتاب الاستبصار، ص ١٥.

[٣٣] : المغرب العربي، ص ١٥١؛ الترجمة الفرنسية. المرجع السابق، ص ١٣٩؛ وتتضمن عائلة البوري، حسب Gateau A. أصنافا متعدّدة، تختلف تسمية كل واحد منها من منطقة إلى أخرى؛ والبوري هي تسمية منطقة الشمال، تونس- بنزرت، ومن أنواعه: أحميري hmiri قيري (quiri) في المناطق الشمالية، ومُويله muela (في الجنوب) ومجلّ في المهدية ويسمىّ مولوس (mulus)، عادة في البحر الأبيض المتوسط، "الروجي" = (le rouget) ويعرف لدى عرب تونس باسمه الإيطالي تريغلية (triglia)، في حين أن هذا النوع يسمى في الشمال (مهدية- تونس- بنزرت)=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(rouget)[٣٤]. ويُرجّح gateau A. أنْ يكون هو المجلّ المذكور بالمهدية[٣٥] وعلى الرغم من أن هذه التسمية اقتصرت على منطقة المهدية فإن الملاحظ أن أغلب الصيادين، مع تمسكهم بالتسميات المحلية، يعرفون ويستعملون كذلك الأسماء المستعارة في الأماكن التي يتواجدون فيها مؤقتا[٣٦]؛ والطّلنط أي البونيت (bonite)[٣٧] والأشبلنيات وهي أبو شوكة (épinoche)، حسب مترجم الإدريسي، محمد حاج صادق، غير أن gateau A. ينفي وجود هذا النوع في مناطق البحر الأبيض المتوسط، ويميل إلى تقريب هذه التسمية من "الشابل" (alose)، ويمكن أن تكون، في نظره تصغيرا للتسمية التي اقترحها هو غير أنه كُتِبَ بطريقة خاطئة، ومن جهة أخرى فإن الشابل لا يُعرف حاليا في بنزرت إلاّ تحت اسم الشبوقة šbûqa والشبوخة šbûqa[38]؛ والشلبة[٣٩] (Saupe)؛ والقَارُوص[٤٠] (loup) واللاّج (Alache)[٤١] أو

=الميلو (mélu) جمع مالو màlu وتصغيره أمْليلو mlélu (انظر gateau A. : les poissons du lac de Bizerte au VI^e XII^e siècle de l'époque actuelle ; Bulletin des études arabes, 2^ème année, n° 9, 1942, PP. 99-100) والمياج أو البوري (muge ou mulet) ينمو كثيرا ويعيش بكثرة في بحيرات بنزرت وإيشكل = Ichekeulاو بورتوفرينة (Porto-Farina)، ومنه البوري الشتوي: البيتوم وقميري (Bitoums et Kmiris) والبوري الخريفي (Argigiane) والبوري الصيفي، والفصول المذكورة هنا هي فترات صيده، وهي تتفق مع الأوقات التي يدخل فيها كل نوع وادي تينجة للوصول إلى البحيرة أو البحر، لأن البوري يتسرأ (يبيض) بالضرورة في البحر، وهذه عملية إجبارية لدرجة أن M. H. Held الذي درس سنة ١٩٣١" المرض الغريب الذي كان يُهلك بوري بحيرة Ichkeul اكتشف أنه ناتج عن استحالة ذهابه إلى البحر لكي يبيض، لأن مجرى وادي تينجة المتوحّل، لم يكن يضمن؛ بما فيه الكفاية، دخول المياه المالحة إلى البحيرة كي يهتدي بها إلى الطريق (Borrel A., op. cit, P. 24).

[٣٤] : المغرب العربي، ص ١٥١، الترجمة الفرنسية، المرجع السابق، ص ١٣٩.

[35] : Les poissons de lac de Bizerte au VI^e XII^e siècle et à l'époque actuelle, dans Bulletin des études arabes, Alger, Janvier-Février 1942, n° 9, 2^ème année P. 100.

[36] Vonderheyden, op, cit, P. 11 :

[37] Id:

[38] Gateau A., op. cit, P. 100 :

[٣٩] : وهي saupe بالفرنسية و Salpe بالإيطالية (Gateau A., op, cit, P. 101)، ويبدو أن تسمية الشلبة من أصل قبطيّ (Vonderheyden, op, cit, P. 11, note 4).

[٤٠]: في نص الإدريسي: القاروض (بالنقطة فوق الصاد) وقد صححها Gateau A. إلى قاروص،بناء على ما اطلع عليه في مُعجم De geoeje (glossaire) الذي أحال هذه التسمية إلى قاروص كما استعملها القزويني (Gateau A., op. cit, P. 99).

[٤١] : الإدريسي المصدر السابق، ص ١٥١؛ الترجمة الفرنسية op. cit ; P 139.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(Sardinelle)[٤٢]، ويحتمل أن يكون الأمر متعلقا بما يُسمّى اليوم بالعربيّة اللاّج، كما هو عند الإدريسي، بالضبط، والمعروف بالفرنسية تحت اسم "maigre"، ويبلغ طوله مترين ويدخل بحيرة بنزرت ربيعا، ولحمه مفضّل[٤٣]؛ والجُوجَة، وهي السمك الطائر (poisson volant)، بالنسبة لمحمد حاج صادق، مترجم الإدريسي[٤٤] أو هي ما يسمى (raie) بالفرنسية[٤٥]، ويقترح gateau A. تعويض الواو بالألف في هذه التسمية لتصبح ما يُعرف اليوم بالجاجة أو خُطايفة أو سردوك[٤٦]؛ والكحلا (Oblade)[٤٧]، وهي تُعرف بالكحلاية، حاليا، في شمال تونس[٤٨]، والطَّنْفلُو الذي يقترح Vonderheyden تقريبه من سمك البَكَلُو (Bakàlou) أي النازلي (merluche)[٤٩] والقِلاّ[٥٠].

ويعلّق gateau A. متسائلا فيما لو كان صحيحا أن كل صنفٍ من أصناف الأسماك المذكورة يَخْلِفُ آخر، في كل الجهات؟ مضيفا أن تأكيد الإدريسي على هذا الأمر، بالدّقة الرياضية التي تميّزه، تجعلنا نبتسم[٥١]، وقد سُجّلت تسميات مختلفة في نص أبي حميد الأندلسي[٥٢]، ومنها الغَرُوض (serre)؛ والعسلة أو بالأحرى الغَسْلة

---

٤٢ : Vonderheyden, op cit ; P. 11 ؛ ويسمى حاليا Allache بالفرنسية، وAllacia بالإيطالية ولاتشَة (làca) بالعربية؛ وقد أطلق الإدريسي تسمية لاش laš على سمك بالنيل، مختلف جدّا، على ما يبدو، عن اللاّج (Gateau A., op, cit, P. 101)؛ ويبدو أن العَلاش (Allache) والسردين والأنشوقة (Anchois) من صنف واحد ينتمي إلى الأسماك المهاجرة، مثل التنّ، ولكن تحركاتها تكون على نطاق أقل بكثير من هذا الأخير، وهي تقتصر على مجال البحر الأبيض المتوسط، وعلى تنقلات أفقية وعمودية، نحو الساحل ونحو السطح، وقت التكاثر، ويكون صيدها موسميا، يمارسُ صيفا، ولا يبعد الصيادون عن الساحل (Borrel A., op, cit ; P. 26).

43 Gateau A., op, cit, P. 101 :

٤٤ : الإدريسي، المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص ١٣٩.

45 : Vonderheyden, op, cit ; P. 11

46 op, cit ; P. 101 :

٤٧ : هي Oblade، حسب محمد حاج صادق مترجم الإدريسي، ص ١٣٠؛ ويلاحظ Vonderheyden أن الكحلاء تعني بالعربية (مكتوبة بطريقة أخرى) السوداء بمعنى نوع من Sar التي لها نقطة سوداء فوق الذيل (op, cit ; P. 11).

48 Gateau A., op, cit, P. 101 :

49 op, cit ; P. 11 :

٥٠ : الإدريسي المصدر السابق، ص. ١٥١؛ الترجمة الفرنسية، المرجع السابق، ص ١٣٩.

51 op, cit ; P. 99 :

٥٢ : انظـــر، Abou hamid andalousi, àdjaib el-Makhloukat, dans extraits relatifs au Maghreb, traduit de l'arabe et annotés par E. Fagnan, Alger, 1924,P 33.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(pélamide)، والملكة (raie)؛ والاستنار والطليطة التي يمكن تقريبها من الطلنط المذكور في كتاب الإدريسي[٥٣].

ويعتقد Vondrheyden أن أسماء كثيرة، في القوائم المذكورة، قد تعني نفس الأصناف، والأمر يتعلق، بدون شك، حسب رأيه، بمصطلحات دارجة، والتي ترجمها منها، كما قال، مازالت متداولة، في الجزائر وتونس وأنّه من الممكن أن يكون أحد هذه الأسماء، على الأقل، أطلق على ما يسمّى اليوم السّلبة (anguille) المعروفة جدًّا في بحيرة بنزرت*[٥٤]، ويُلاحظ أنه لم ير في هذه القوائم L'alose (الشابل)، ومما جاء في أحد نصوص الوزان (Léon l'Africaine) أنه يُصطاد، بعد شهر أكتوبر، من بحيرة بنزرت عددٌ فائق من سمك يسميه الأفارقة جيارافة (giarrafa) ويسميه الرومان laccia ويسمى عندنا (عند الإيطاليين) alouse، وبسبب الأمطار، يحلُو الماء الذي يُصعِد السمك في البحيرة القليلة العمق، وتُمدَّد عملية الصيد إلى بداية مايو، وعندها يبدأ هذا السمك في الهزال"، غير أن La giarrafa هي L'orate أي نوع من سمك المرجان (pageot)[٥٥].

ومما انتهى إليه Vonderheyden أنه: إذا كان لابدّ من ذكر صنف غالبٍ، من الأسماك، في كل شهر من أشهر السنة، في بحيرة بنزرت، فذلك يكون، حسب الملاحظات الحديثة، تقريبا، كالتالي: القاروص في يناير، والشفس (ombrine) في فبراير، والجوجة (raie) في مارس، والغُبرَ♦ (merlan) في أبريل، واللاّج (allache) في مايو، وسمك موسى (Saule) في يونيو، والطلنط (bonite) في يوليو،

---

٥٣ : انظر، Vonderheyden, op, cit ; P P. 11-12.

٥٤ : *والسّلبة (anguille) من الأسماك التي تقوم بهجرات موسمية، من مياه البحيرات إلى مياه المحيط الأطلسي، وقت التسرئة، وهي تدخل، عند خروجها من بحيرة إشْكُلْ في مصائد وادي تينجة (Borrel A., op, cit ; P. 26).

٥٥ : Op, Cit ; P. 12، ويتخذ Borrel A. من سمك المرجان، إلى جانب البوري نموذجين لأسماك السواحل المغربية المستقرّة، إذ يقوم كلاهما بهجرة مؤقتة لكنها منتظمة، تأخذهما على التوالي، إلى البحيرات المالحة والبحر، والمرجان هو سمك ضخم، ذو جسم مكوّر (arrondi)، ورأس كبير، جانباه مذهبان وهو يعيش، تارة في البحر، وطورا في خلجان بنزرت، وبورتوفرينة (سيد علي المكي) وتونس، وبعد ولادته في البحر، بالأعماق الكبيرة، حيث توجد مسارئه، ينمو هناك، ويكبر في الصيف أكثر من الشتاء، ولا يوفر له البحر، على العموم، غذاء كافيا، فيبقى نموه بطيئا، فإذا عثر على مدخل بحيرة دخلها ثم استقر بها، واجدا فيها غذاءه المفضل من طحالب (Crabe) ومَعَدِّيات الأرجل وغيرهما ولا تخرج الذكور منها في السنة الثانية والإناث في الثالثة إلا للتسرئة التي تتّم في البحر (Borrel A., op, cit ; PP. 23-24).

♦جنْس من الأسماك المفترسة، من فصيلة الغادسيات (المنهل، ص ٦٦١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والبوري (mulet d'été) في أغسطس، وأحميري (mulet doré) في سبتمبر، وسمك المرجان (daurade-pageot) في أكتوبر– نوفمبر، والسّلبة (anguille) في ديسمبر، غير أن أوقات مرور كل نوع على البحيرة يمتدّ كثيرا إلى الشهور المجاورة[٥٦].

وقد كانت مصيدة، بنزرت تشتغل في عهد الاستعمار الفرنسي، طيلة السنة، وتصادفيها، على التوالي، مختلف أنواع الأسماك، وقت هجرتها: ففي شهري أكتوبر- نوفمبر يكون صيد سمك المرجان الذي يتراوح وزن السمكة الواحدة منه ما بين كيلوغرامين وخمسة كيلوغْرام؛ وفي ديسمبر- يناير ينتظر الصيادون مرور القاروص (des loups) ثم البوري الشتوي (mulet d'hiver)؛ ومن فبراير إلى أبريل يصطادون البيتوم وقميري (Bitoumes et Kmiris)، وتتخفظ كمية الأسماك المصطادة في فصل الربيع ليسترجع الصيد أهميته في فصل الصيف مع بوري الصيف أو البوري والصار (Sars) ثم تُستأنف العملية من جديد[٥٧].

ومع أن المصادر العربية، كانت قد ركّزت، في ذكرها، لأنواع السمك، على بحيرة بنزرت، لكنها لم تُقصّر، من حين لآخر، في ذكر بعض الأنواع التي اشتهرت بها مناطق أخرى، ومن ذلك ما أشار إليه كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار عن بوري بحيرة باجة الذي لا يوجد مثله في مكان آخر، حيث يمكن إخراج عشرة أرطال شحمٍ وأكثر من حوت واحد منه، إذا كان كبيرا (من جلتها)[٥٨] ويذكر ابن أبي زرع الفاسي البوري، إلى جانب الشابل من الأنواع التي كان أهل فاس يصطادون منها أحمالا كثيرة، من نهر سبو المار شرق مدينتهم، فتصلها طريّة لم تتغير[٥٩] كما أن

---

[56] Vonderheyden, op, cit ; P. 12 :

[57] Borrel A., op, cit ; P. 35 :

[٥٨] : المُغرب، ص ٥٥؛ الترجمة الفرنسية، Mac guckin de slane, op, cit ; P. 121؛ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص ١٧.

[٥٩] : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط UPSALLAE، ١٩٤٣، ص ١٧-١٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سمك بحيرة درنة، الواقعة قرب مدينة طبرقة[٦٠] كان يعتبر من بين أربعة أشياء، طالما جعلت ولاة باجة يبذلون كل المساعي للبقاء في مناصبهم[٦١]، من أجلها.

ومما أفادنا به ابن حوقل أنه لم ير ببلد ما مثل صيود أسماك مرسى الخرز سمنا مضيفا أنه "ربما منع جانبه من أكل ما يصاد بها، سيما وقت الغلات"[٦٢] وهي عبارة غير مفهومة ترجمها كل من J.H. Kremer وG. Wiet " Ils sont tellement corias qu'on peut à peine les manger" أي أنها صلبة الجلد لدرجة أن أكلها يكون صعبا[٦٣].

وينفرد الإصطخري بالقول: إن بمدينة طبرقة، في البحر، معدنا للمرجان، لا يُعرف غيره في الأرض[٦٤] غير أن بقية المصادر تتفق على أن أهم مكان لاستخراج المرجان ببلاد المغرب هو مدينة الخرز (القالة) ويطلق ابن حوقل هذه التسمية على ميناء (مرسى) وعلى قرية يعتبرها نبيلة لِمَا بها من المرجان، وتوافد التجار عليها من أجله، ويحدد موقعاها بنحو مرحلة من قرية طبرقة، غربا، على ساحل البحر، بطبيعة الحال، ويؤكد أنه لا يعرف لمرجان مرسى الخرز نظيرا في الجودة ببحار الأرض[٦٥] وهو يلتقي في حُكمه هذا مع صاحب كتاب الاستبصار، الذي يعتبره "أنفس مرجان الدنيا"[٦٦] وهذا القول ينطبق، ولا شك، على المرجان الأحمر الذي يُتفاءل به، ويُصدّر إلى بلدان المحيط الهندي التي لا يوجد بها سوى المرجان الأبيض[٦٧]، والمرجان الأحمر خاص بالبحر الأبيض المتوسط، يُصطاد في مرسى الخرز، ويُصدر بكميات

---

٦٠ : كتبت طرفة في كتاب الاستبصار، ص ١٦، غير أن Fagnan E. صححها اعتمادا على المخطوط "A" الذي اعتمد عليه، إلى جانب طـ Kremer، في ترجمة الكتاب إلى الفرنسية، (انظر، l'Afrique septentionale, P. 29)؛ ومحيط هذه البحيرة نحو أربعين ميلا، تصب في البحر، ويصب البحر فيها، وماؤها ما بين الملوحة والحلاوة وتعيش فيها أنواع كثيرة من الحوت (كتاب الاستبصار، ص ١٧؛ الترجمة الفرنسية، Fagnan E., op, cit ; P. 29).

٦١ : بقية هذه الأشياء هي قمح عنده، وسفرجل زانة، وعنب بلطة (المغرب، ص ٥٥؛ الترجمة الفرنسية Mac guckin de slane, op, cit ; P. 121؛ كتاب الاستبصار، ص ١٧؛ الترجمة الفرنسية Ibid, P. 29).

٦٢ : صورة الأرض، ص ٧٥.

63 : Ibn Hawkal : configuration de la Terre, Beyrouth-Paris, 1964, P. 71.

٦٤ :كتاب المسالك والممالك،وهو معوّل على كتاب صوّر الأقاليم للبلخي،طـ ليدن، ١٩٦٧، ص ٣٨.

٦٥ : صورة الأرض، ص ٧٥؛ الترجمة الفرنسية op, cit ; P. 71؛ مع العلم أن مترجمي ابن حوقل أخطأ في ترجمة عبارة "ومرسى الخرز أيضا قرية" إلى Marsa L'Kharez est sans doute un village مرسى الخرز هي "بدون شك" قرية.

٦٦ : مؤلف مجهول، ص ١٧؛ الترجمة الفرنسية Fagnan E., op, Cit ; P 29

67 M. Lombard, l'islam dans sa première grandeur (VIII-XI[e] siecle), Paris, P. 70 :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كبيرة إلى الخليج العربي (golf persique) والهند، حيث تصنع منه الحلي المطلوبة بكثرة، وهو من أهم المواد التي كان اليهود يصدرونها، من الفسطاط إلى الهند[٦٨].

ويعتبر المقدسي مرسى الخرز مدينة في جزيرة على البحر، يُدخل إليها من موضع واحد، من طريق ضيق، كما يُدخل إلى المهدية[٦٩]، مضيفا أن قرنا (Banc)، هو المرجان، يرتفع في بحرها، وهي عبارة عن جبال في البحر، لا يوجد المرجان إلا بها[٧٠] غير أن مصادر كثيرة تخالفه في هذا الأمر؛ ومن ذلك أن أبا الفداء يشير إلى وجود "مغاص من المرجان" بمدينة بونة (عنابة) يختلف عن مرجان مرسى الخرز[٧١] غير أنه لم يوضح نوع هذا الإختلاف؛ ويتحدث ابن حوقل عن وجود المرجان بمدينة تنس[٧٢] وبمدينة سبتة، حيث يصفه بقلة الجوهر وحقارة المقدار، بالمقارنة مع ما يُستخرج من مرسى الخرز[٧٣]، وهو يختلف في هذا الموضوع مع صاحب كتاب الاستبصار، في حديثه عما في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) بساحل قرية بليونش، من قرى سبتة، حيث شبهه في الطيب (الجودة) بما في مرسى الخرز وأجل (أكثر)[٧٤] ويتجاوز الإدريسي هذه المقارنة فيذهب إلى القول: إن ما يصاد بمدينة سبتة من المرجان، لا يَعْدِلُه غيره من الأصناف المستخرجة من جميع البحار[٧٥].

ويتحدث صاحب كتاب الاستبصار، عن وجود المرجان في بعض جزر البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) دون أي تحديد، كما ينقل Vonderheyden نفس الخبر عن أبي حميد الأندلسي، وينقل عن Féraud (Histoire de Bougie, P. 4) وجود بعض القرون (Bancs) من المرجان في خليج بجاية، وخاصة على مستوى زيامة، وكان صيدها، ذات يوم، امتيازا للكطلانيين[٧٦].

ويتفق المقدّسي مع ابن حوقل في اعتبار المرجان معدنا[٧٧]، وهو حسب ابن حوقل، ينبت في الماء كالشجر ثم يستحجر فيه بين جبلين عظيمين[٧٨] و"لا إشراق له

---

68 . Ibid, P. 189 :

69 Al-Muqaddasi, description de l'occident musulman au IV-Xe siècle, texte arabe et traduction par Charles : Pellat, Alger, 1950, texte arabe, P. 18 et 48, traduction, P. 19 et 50.

70 . Ibid, P. 18 et 48 ; Trad, P. 19 et 50 :

٧١ :كتاب تقويم البلدان،طبع وتصحيح رينود والبارون ماك كوكين دوسلان،باريس،١٨٤٠،ص ١٤١.

٧٢ : صورة الأرض، ص ٧٥؛ الترجمة الفرنسية J.H. Kramet et G. Weit, op, cit ; P. 71

٧٣ : صورة الأرض، ص ٧٥؛ الترجمة الفرنسية، op, cit ; P. 71

٧٤ : مؤلف مجهول، ص ١٧؛ الترجمة الفرنسيةFagnan E., op, cit ; P 29

٧٥ : المغرب العربي، ص ١٨٣؛ الترجمة الفرنسية، ص ١٦٥.

76 Vonderheyden, op, cit ; P. 32 :

77 Al-Muqaddasi, op, cit ; P: 18 ; trad, Fr, P. 19 :

٧٨ : صورة الأرض، ص ٧٥؛ الترجمة الفرنسيةKramer J.H. et Wiet G., op, cit ; P. 71

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبل جلّيه (Polissage) ولا لون"[٧٩]، ويُورد صاحب كتاب الاستبصار ما يقال من أنه: "إذا كان في قعر البحر إنما هو رطب لين، فإذا مسّه الهواء اشتد (se durcit)"[٨٠]، وبالنسبة لابن سعيد المغربي فإن المرجان الذي يكون شجرا مستحجرا في البحر، يخرج ليّنا، أبيض اللّون، فإذا تعرض للهواء أحمرّ وصلُب[٨١]، وقد سجل القزويني ما حكاه له شاهد عن كون المرجان يخرج جِسْما أغبر اللّون فيحك قشره حتى يصير أحمر حسنا[٨٢].

وللدمشقي (من علماء القرن ١٤م/٨هـ) تفسير آخر للمرجان: فهو، بالنسبة إليه يتكون بتسرب ماء المطر، في تجاويف الشاطئ، وغوصه تحت الماء المُرّ الذي يغطي الشاطئ، وبعد بقائه مدة طويلة يتمكن من تذويب التربة، فتكوّن الجزء المعدني من المرجان وتعطيه قوة خفية (Vertu) من صلابة قادرة على التغلب على طبيعة الماء، بالإضافة إلى أن الماء ماثل (s'est assimilé) هذه القوة، ودخلت جزيئاته، دافعة بعضها البعض، في الأرض ثم ارتفعت من عمق البحر ممتدة ومتفرعة، وهكذا تصير نباتية، إن كانت شجرة، ومعدنية إن كانت حجرا[٨٣].

والمرجان (Corallium rubrum) ينتمي، حسب .Borrel A إلى عائلة حيوانات المجوفات، لكن شكله المتشجر يدفع على التفكير في النبات أكثر منه في الحيوان، ويحيط بهيكله الكلسي المتفرع جلدٌ أحمر لحميّ (Charnue) تخرج منه مديخات♦ (polypes) من قرن (banc) جميل له أزهار كَوْكبية الشكل، وهو متوفر بكثرة في السواحل الجزائرية-التونسية، على أرصفة السواحل الصخرية[٨٤].

ويعرف البكري مدينة بونة (عنابة)، على أنها مدينة "برية- بحرية، كثيرة... الحوت"[٨٥] متفقا مع صاحب كتاب الاستبصار على أن البحيرة الواقعة على مسافة يوم، إلى الغرب منها، غنية بالأسماك الجليلة[٨٦] (الكبيرة) ويقدر الأول طول تلك

---

79 Al-Muqaddasi, op, cit ; P 49, trad ; Fr, P 50:

٨٠ : مؤلف مجهول، ص ١٧؛ الترجمة الفرنسية Fagnan E., op, cit ; P. 29

٨١ : كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٤٣.

٨٢ : آثار البلاد وأخبار العباد، طـ دار صادر، بيروت، ص ٢٦١.

٨٣ : ذكر هذا النص Vonderheyden نقلا عن Carra de Veaux في كتابه Les penseurs de l'Islam, II, P. 327 (انظر Vonderheyden, op, cit ; P. 29).

♦ مفردها مديخ، وهو جنس حيوانات بحرية من المحوفات (المنهل، ص ٧٩٥).

84 A. Borrel A op, cit ; PP 26-27.5

٨٥ : المغرب، ص ٥٥.

٨٦ : نفس المصدر، ص ٥٨؛ مؤلف مجهول، ص ١٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البحيرة وعرضها بثلاثة أميال في مثلها[٨٧] في حين يقدر الثاني محيطها بعشرة أميال[٨٨].

ويلاحظ أن المصادر المعتمدة في دراسة موضوع الأسماك لا تشير أبدا، في الفترة المخصصة لهذه الدراسة، إلى ما ذكره Vondrheyden من أن "العرب أطلقوا على الرأسين (Caps) اللّذين يَحْدان مدينة سكيكدة إسمي رأس بسكاد (La pointe de la pescade) ورأس الأسماك، مما يدل، حسب رأيه، على توفر الصيد هناك"[٨٩] مع العلم أنه لم يوثق كلامه هذا.

ويتحدث الإدريسي عن توفر حوت كثير العدد، كبير الحجم لذيذ الطعم بجيجل[٩٠] كما يفيد الوزان بأن الأسماك كانت متوفرة أيضا بوادي الصومام (الوادي الكبير) النابع من الجبال المحادية لمقاطعة الزاب والذي يصب على ثلاثة أميال (٥ كلم)، تقريبا من مدينة بجاية، غير أن الصيادين لم يكونوا يصطادونها لقرب البحر منهم[٩١]، مما يدل ولا شك، على توفر الأسماك بسواحل بجاية، وعلى ممارسة مهنة الصيد بها ولكن بطريقة لا تلفت النظر، وهذا ما يفسر سكوت المصادر السابقة للوزان عن الكلام في هذا الموضوع. ويخبرنا المصدر الأخير أن سكان مدينة تادلس (دلس) كانوا كلهم يصطادون بالشباك حوتا كثيرا، لا يباع ولا يشترى، بل كان يعطى لمن يرغب فيه[٩٢]، ويعتبر Vonderheyden ساحل جيجل والقُلّ وبجاية مسمكا جدا[٩٣]، لكن ما قاله الرحالة العبدري، في القرن الثالث عشر ميلادي (٧ هـ)، وهو يصف مدينة الجزائر على أنها "تستوقف بحسنها ناظر الناظر ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حازت مزيتي البر والبحر. وفضيلتي السهل والوعر. ولها منظر معجب أنيق وسور معجز وثيق. وأبواب محكمة العمل يسرح الطرف فيها حتى يمل ولكنها قد أقفرت من المعنى المطلوب كما أقفر من أهله ملحوب..."[٩٤] كل هذا الكلام لا تبدو له أية صلة بما فسّره به Vonderheyden من أن مدينة الجزائر لها ميزات عديدة وخصوصا موارد خليجها، بثروتها السميكة[٩٥].

---

٨٧ : نفسه.

٨٨ : مؤلف مجهول، ص ١٨.

89 . op, cit ; P 18 :

٩٠ : المغرب العربي، ص ١٢٥؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص ١١٧.

91 . Description de l'Afrique, T. 2, P. 548 :

92 . Description de l'Afrique, T. 2, P. 352 :

93 . op, cit ; P. 18 :

٩٤ : الرحلة المغربية، تحقيق أحمد جدّو، نشر كلية الآداب الجزائرية، ص ٢٣.

95 op, cit ; P. 18 :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتوجد في جون (خليج) هور الذي يبتدئ، ثمانية عشر ميلا، غرب مدينة جزائر بني مزغنة وينتهي باثني عشر ميلا شرق شرشال، قرية صغيرة، وسطه، تبعد قليلا عن البحر، سكانها، حسب الإدريسي، صيادون للحوت، غير أن مياهه مليئة بأقصار (صخور) لا يمكن لمن يسقط فيها أن يتخلص[٩٦].

أما الساحل الممتد ما بين شرشال ومنطقة الريف، غربا، فهو كما يلاحظ Vonderheyden قليل الذكر في المصادر المستخدمة في هذا البحث: إما لقلة الملاجئ أو الأسماك، وإمّا لأنّ السكان، الأقل استقرارا، كانوا ينفرون من هذه المهنة، غير أنّ صيد الأسماك في التعرجات الريفية يبدو أن ممارسته كانت في كل زمان[٩٧].

وفي عهد الوزان، كان سكان مدينة باديس يعتمدون، في عيشهم، بالدرجة الأولى، على السردين وأسماك أخرى، لأن الصيادين كانوا يصطادونها بكثرة[٩٨].

وكانت مدينة يلش الصغيرة، الواقعة غرب باديس، بحوالي أربعة أميال، خالية من سكانها، أيام المؤلف الأخير، بسبب هجمات القراصنة الإسبان عليها، ولم يبق بها آنذاك سوى عدد من أكواخ الصيادين الذين كانوا في حالة نفور دائم، وكانوا بمجرد ما يشاهدون سفينة حربية يلجأون إلى الجبال للاستعانة بسكانها في الدفاع عن أنفسهم[٩٩].

أما مدينة ترغة الواقعة على بعد خمسين ميلا (٨٠ كلم)، شرق مضيق جبل طارق، فقد كان سكانها، في نفس الفترة، صيادين تعودوا على تمليح السمك المصطاد وبيعه، ثم بدأ حالها يتدهور، بعد أن احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٢م[١٠٠].

ومما أورده البكري أن فتى موسى (عم) نسي الحوت بموضع ماء الحياة، القريب من مرسى بليونش، ويوجد في ذلك المكان خاصة، دون غيره، حوت ينسب إلى موسى، عرضه مقدار ثلثي شبر، وطوله أكثر من شبر، لحمه في أحد جانبيه والجانب الآخر لا لحم فيه، إنما جلدته على الشوك ولحمه طيب نافع من الحصاة مقو للباه[١٠١] أي الجماع، ويتبرّك به الناس ويهدونه للمحتشمين[١٠٢]، ولا يعرف، حسب Vonderheyden، لماذا أعطى موسى اسمه إلى la sole، كما سجل هذا الأخير ما

---

[٩٦] : المغرب العربي، ص ١٣٠؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص ١٢٢.

[97] op, cit ; P. 19 :

[98] Description de l4afrique, T. 1, P. 275 :

[99] Ibid, P. 276 :

[100] Ibid, P. 274 et notes 534 Sqq :

[١٠١] : المغرب، ص ١٠٦؛ الترجمة الفرنسية Mac Guckin de Slane, op, cite ; PP 208-209؛ قارن القزويني، المصدر السابق، ص ٢٠١.

[١٠٢] : القزويني، آثار البلاد، ص ٢٠١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذهب إليه Brunot M. من أن تسمية حوت موسى تطلق، عادة، على كل المفلطحات (pleuronectidés)[١٠٣].

وفي حديث الإدريسي عن مصائد مدينة سبتة، ذهب إلى القول: إنه "لا يَعْدِلُها بلدٌ في إصابة الحوت وجلبه، ويصاد بها من السمك، نحو مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمّى التُّن، وبها كثير منه"[١٠٤] مع العلم أن المصادر المستخدمة في هذا البحث لم تشر إلى ما ذكره vonderheyden من أن النصوص القديمة أعلنت عن وجود التّن بمنطقة بجاية إضافة إلى سبتة، غير أن استنتاجه القاضي أنه ما دام اصطياد التّن كان مزدهرا في التاريخ القديم، ولا يزال يمارس في التاريخ الحديث، بوسائل قديمة جدا، ينبغي الاستنباط أنه لم ينقطع أبدا من سواحل تونس الشمالية، رغم سكوت المصادر عن ذلك[١٠٥]، وما ينطبق على سواحل تونس ينطبق، بدون شك، على سواحل الجزائر ومن بينها ساحل بجاية.

ولا توجد أيّة إشارة، في المصادر المستخدمة، في هذا البحث، وفي الفترة المخصصة له، إلى ما يدلّ على أنه "كانت تصاد ميديات (les moules) بكثرة "كما يؤكد Vonderheyden[106] إلاّ إذا كان تأكيده خاصا بفترة أحدث، ولا عن صيد المحارات (les huitres) ولا عن القُشريات (Crustacés) التي ينشط اصطيادها، في أيّامنا ببعض الأماكن.

ومن نوع الأسماك التي نقلها Vonderheyden عن الترجمة الألمانية لكتاب القزويني: الحُبَار (la seiche) وقد شاهده، حسب هذا المصدر، رحالة أندلسيّ، في بحر المغرب، وهو على هيأة قلنسوة تركية، دون فم ولا عين، ولا رأس، ويوجد في أنابيبه نوع من المِرّة (fiel) شبيهة بمِرّة البقر، وإذا ما اصطيد، فهو يسوِّد، مثل الحبر، الماء المحيط به، ويبقى الماء المحيط بالشبكة أسود، ويستعمل هذا الماء في الكتابة؛ وهذا الحبر أحسن من غيره، فهو لا يُمْحَى، وله لون أسْود لامع جدًّ[١٠٧]، وينطبق هذا الوصف، بدون شك، على ما يعرف اليوم بـــ Sépia.

ويصنف vonderheyden، اعتمادا على نفس المصدر، الشيخ اليهودي (عجل البحر) من بين أضخم الحيوانات، مترجما ما وصفه به القزويني على أنه "حيوان، وجهه شبيه بوجه الإنسان، له لحية بيضاء، وهو شحوم مثل العجل، وهو يشبه، في مظهره الخارجي، الضفدع، له وبر مثل البقرة، وقد سُمي الشيخ اليهودي، في كل مكان

---

[103] op, cit, P. 14 et 15, note 1 :

[١٠٤] : المغرب العربي، ص ١٨٢؛ الترجمة الفرنسية لمحمد حاج صادق، ص ١٦٥.

[105] op, cit ; P. 13:

[106] op, cit ; P. 13:

[107] Op, cit, P. 15:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأنّه يخرج، في ليلة السبت، من الماء إلى اليابسة ويبقى هناك إلى مطلع الشمس، ليلة الأحد، دون أن يَدخُل الماء ليأكل أو يتحرك، وبعد انتهاء ليلة الأحد، يرتمي في الماء مثل الضفدع"[١٠٨].

ويعلّق Vonderheyden على كلام القزويني قائلا: " من الطبيعي أنَّ عادَة عجل البحر، في الخروج من الأمواج، تلك الساعات للنوم، فوق الصخور، قد فاجأت السكان المجاورين، خاصة وأنه من الصعب الاقتراب منه، مستشهداً بقول القس بواري (poiret)، عالم الطبيعيات الذي درس حيوانات الجزائر في القرن الثامن عشر، من أنه من النادر أن تصيبه رصاصة تمنعه من الفرار"[١٠٩].

هذه الخاصية وحدها كفيلة بتفسير سكوت المصادر الأخرى عن ذكر وجود عجل البحر الذي يؤكده القس poiret، في بلاد المغرب، على الأقل في كلّ من مستغانم وتِطْوان، حيث نسج سكانهما أسطورتين تثبتان ذلك[١١٠].

وعلى العموم، فإن الحيوانات السمكية (la faune ichtyologique)، حسب Borrel A. أقل انتشارا في البحر الأبيض المتوسط من المحيط الأطلسي، زيادة على بطء نموّ الأفراد (individu) في الأول بسبب قلة نباتات البلانكتون به ودرجة ملوحته الكبيرة[١١١].

---

[108] Id:

[109] op, cit ; PP. 15-16:

[١١٠] : أولى هاتين الأسطورتين أن سكان مستغانم يعتقدون أن عجل البحر كان، فيما مضى نسّاجا، وبعد شجاره مع صاحب عمله، ألقى بنفسه في البحر، في حين يعتبره سكان تطوان أيضا نسّاجا ممسوخا لانتهاكه حرمة ابنته، وإذا غرق إنسان في البحر فهو يحمي جسده من الأسماك مدّة أربعين يوما (انظر Vonderheyden, op, cit ; P. 6).

[111] op, cit ; P. 21 :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com